إبراهيم باشا

موقعة نصيبين

في أواخر هذا الشهر يخرج الأستاذ محمد بدران ناظر مدرسة بنها قادن الابتدائية ترجمة عربية لكتاب « إبراهيم » تأليف القاضي بيركربيس بتصريح خاص من شركة روتلدج الانجليزية ، والكتاب مثال من الدقة والأمانة في الترجمة . وإليك فصلا من فصوله ننشره بمناسبة تتويج الفاروق أعز الله ملكه .

لما علم محمد علي بأن الجيش التركي يستعد للزحف على بلاد الشام ويحرض أهلها على الثورة ضد وزير حربيته أن يلحق إبراهيم رغم معارضة قناصل الدول

وأسرع وزير الحربية إلى مقر القيادة العليا لجيش إبراهيم . وكان الطريق أمامه طويلاً ، ولا يستطيع هو السير فيه مسرعاً كما يسير الرسول . ولذلك سبقه مبعوث خاص يحمل إلى إبراهيم أوامر أبيه . ولم نستطع الاطلاع على نص هذه الأوامر ، ولكن في مقدورنا أن نتكهن بمعناها لأن إبراهيم قد خول منذ يونيه سنة ١٨٣٩ الحق المطلق في أن يفعل كل ما يراه صالحاً ، فيبدأ الحرب أو يحافظ على السلم حسبما تمليه عليه الظروف[1]

ولما ترك محمد علي لإبراهيم أن يتصرف في الأمر بحكمته وحسن تدبيره ، كان يعرف أنه لن يهاجم العدو إلا إذا اضطر إلى ذلك اضطرارا ، على الرغم من أن تركيا ومصر كانتا في حالة حرب فعلية في البر والبحر منذ شهر مارس من عام ١٨٣٩ ، كما أنبأ القنصل الانجليزي العام بالقاهرة حكومته في ٢٦ من ذلك الشهر[1] . ولطالما استفز الأتراك إبراهيم بموقفهم العدائي ؛ ولولا قدرته على كبح جماح نفسه لتكشف ستار السلم عن حقيقة الحرب العلنية . وقد كتب في ذلك القنصل اليوناني العام في الإسكندرية إلى وزارة خارجيته بتاريخ ١٨ يونية يقول :

« تدل الأنباء الواردة من المنطقة التي يعسكر فيها الجيشان في الوقت الحاضر على أن جيوش السلطان تواصل الزحف ، وتشجع أهل البلاد على الثورة بتقديم الأسلحة وبذل الوعود لهم . وقد تقدم (سليمان باشا والي مرعش) في جيش مكون من نحو ثمانمائة

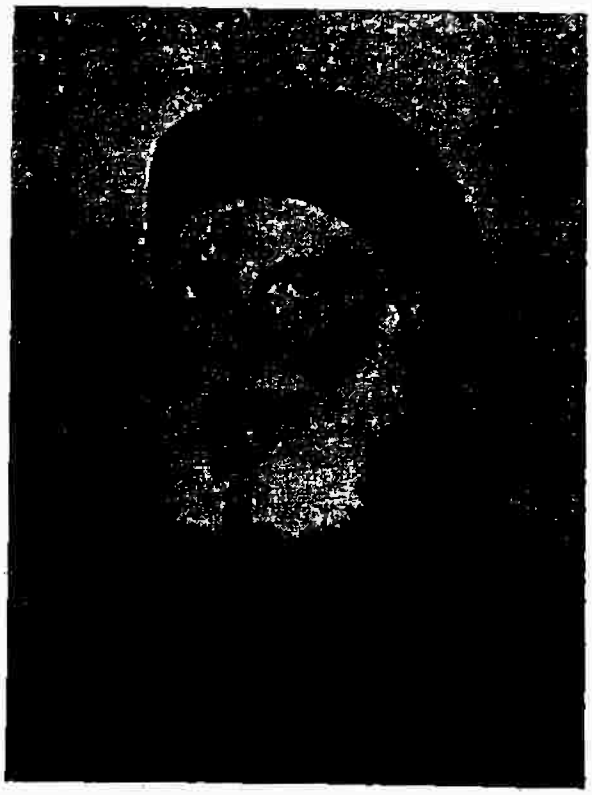

فارس ، حتى بلغ عينتاب واستولى على المدينة ، وإن كانت قلعتها لا تزال في أيدي المصريين . ويقال إن حافظاً باشا القائد العام للجيوش التركية كان مع هذه القوة ، ولكنه تخلف عنها قبل أن تصل إلى عينتاب . ورأى جنود السلطان سكوت الجيش المصري وامتناعه عن القتال إطاعة للأوامر الصادرة من الوالي إلى إبراهيم باشا ، بعد أن هددته الدول الأوربية وأنذرته ألا يكون البادىء بفتح باب العدوان ، فاغتنموا هذه السانحة وتوغلوا في البلاد من غير أن يلاقوا مقاومة ، اللهم إلا مناوشة بين الفرسان السالفي الذكر وكتيبة صغيرة من البدو »[2] .

وقد أفصح هذا القنصل العام نفسه في رسالة سابقة بعث بها إلى حكومته عن حقيقة تهديد الدول الأوربية . وقبل أن ننقل إلى القارىء شيئاً من هذه الرسالة نقول إن ميخائيل توسزا Michael Tossizza الذي بعث بهذه المعلومات إلى أثينا ، لم

(*) تقع قرية نصيبين على الطريق الواصل بين بيرة جك والاسكندرونة وهي غير نصيبين التي بالجزيرة ، ويسميها الافرنج والترك نزيب (المعرب)

(١) بولينس في كتابه السالف الذكر ص ٦٣

(١) المصدر عينه ص ٨٠

(٢) المصدر عينه ص ٦٣

يكن من رجال الدبلوماسية الرسميين ، ولا من رجال البحرية ، بل كان تاجرا استوطن الإسكندرية قبل أن تستقل بلاد اليونان ، وكسب صداقة محمد على ، واحتفظ بهذه الصداقة . فلما أنشأت بلاد اليونان أول قنصلياتها فى القطر المصرى فى عام ١٨٣٣ ، عهدت بأمور القنصلية إليه . ولم يكن يرسل فى أول الأمر تقارير منتظمة إلى وزارة خارجيته ، كما أنه لم يبدأ الاشتغال بالمسائل السياسية إلا فى سنة ١٨٣٨ [١] . ولم يكتسب قط فى حياته ذلك الأسلوب الخاص الذى تكتب به المراسيم والوثائق السياسية ، بل كانت معانيه على الدوام واضحة كل الوضوح . ويمتاز ما كتبه توسزا بميزة أخرى غاية فى الأهمية ، وهى ناشئة من الصداقة الوثيقة التى كانت بينه وبين محمد على . وقد كتب هذا القنصل إلى وزارة خارجيته فى ٢٣ يوليه سنة ١٨٣٨ يقول :

« لقد أبلغ المستر كامبل وكيل إنجلترا السياسى الوالى بصفة رسمية أن بريطانيا العظمى تعارض أشد المعارضة فيما يطلبه من الاستقلال ، وتصر على أن يبقى كما هو ؛ وإلا فإن الدول الأربع : إنجلترا وفرنسا والروسيا والنمسا ستعمل مجتمعة لمنعه من نيل استقلاله ، ولو أدى ذلك إلى استخدام القوة . وهذه الدول متفقة على ذلك ، وقد قررت أن تزيد قوة الأسطولين البريطانى والفرنسى فى البحر الأبيض المتوسط ، وأن ترسل الجنود النمساوية إلى بلاد الشام إذا استلزم الموقف ذلك . ويلوح أن عمر الوالى سيجيب بأنه إذا عجز عن نيل رغباته بالرضا والمسالمة ، فستلجئه الضرورة إلى أن يعمل لنيلها بوسائل أخرى ؛ ومهما كانت العاقبة فسيكون من أكبر دواعى الشرف له أن تهزمه الدول الأربع الكبرى »[٢]

وكتب توسزا رسالة أخرى فى ٦ سبتمبر سنة ١٨٣٨ يضم فيها بروسيا إلى جماعة الدول المتفقة . ولهذا الأمر أهميته ، لأننا عرفنا من قبل أن هلمث فون ملتكه كان وقتئذ مع الجيش العثمانى الذى كان يعمل بكل ما فى وسعه ليستثير غيظ إبراهيم . وليس يخفى علينا أن ملتكه كان فى ذلك الوقت رجلا لا خطر له ، ولا يكاد يعرفه أحد ؛ ولكن انضمام النمسا والروسيا وبروسيا كان مقدمة لحلف القياصرة الثلاثة الذى تم فيما بعد ، ومضاعفاً للخطر الذى كان يتعرض له جيش إبراهيم . وقد أبلغ قناصل هذه الدول الثلاث محمداً علياً أن دولهم لا تسمح بأن يطرأ على العلاقة القائمة بينه وبين الباب العالى تغيير ما ، وأنه إذا أقدم على عمل أيا كان نوعه فستنضم هذه الدول إلى تركيا لقتاله والتغلب عليه ؛ فأجابهم الباشا عن ذلك بقوله :

« إننى لا أرغب فى الحرب ، ولن أقدم على عمل عدائى ، ولكننى راغب فى الاستقلال ، ولن أتخلى عن هذه الغاية »[١]

على أن هذا التحذير كان له أثره فى نفس محمد على ؛ ورأى أن خير وسيلة لتجنب هذه الأحاديث البغيضة المنذرة بأسوإ العواقب ، أن يرحل إلى الجنوب . وكانت الإشاعات متواترة بأن مناجم من الذهب صالحة للاستغلال قد كشفت فى السودان . ورأى الباشا من مصلحته أن يتحقق من هذه الأنباء الهامة بنفسه ، حتى إذا ما اضطر إبراهيم إلى الزحف على الأتراك ، حلت بهذا الكشف مشكلة من أهم المشاكل . وزيادة على ذلك فإن غيابه يهيىء الظروف للمسألة التركية كلها أن تستقر على قرار ثابت مكين . لكن هذا الغياب المؤقت لم يكن ليفت فى عضد الزمرة الدبلوماسية المتحدة التى ظلت تعارض محمداً علياً بعد رجوعه فى ١٥ مارس سنة ١٨٣٩

ولا شك فى أن إبراهيم كان يعرف كل هذه الحقائق ويعرف أيضاً كيف يتعظ بعبرها ؛ لأن أباه كان دائم الاتصال به لا يقطع عنه أخباره ؛ وكانت معرفته بها وتقديره خطر الموقف الذى كان يواجهه سبباً فى أنه لم يحرك ساكناً حينما استثار الأتراك غيظه ؛ وذلك لأنه أيقن أن الأتراك يلقون معونة أوربا السياسية ؛ وعرف الباب العالى ذلك فوقف من المصريين هذا الموقف المغضب . وكان فون ملتكه وفون ملباخ Von Mulbach وغيرهما من الضباط البروسيين لا يفتأون يحرضون قواد الترك العسكريين ، ويستعينون بما طبع عليه الألمان من اعتداد بالنفس ومغالاة فى الاطمئنان إلى مقدرتهم ، فيغرون حافظاً باشا بالاستمرار على مناوأة إبراهيم .

وصادف تحريض الضباط البروسيين هوى فى نفس القائد التركى العام ، فلم يشك قط فى الظفر بأعدائه ، لأن له جيشاً جراراً ، وإدارة للمخابرات دقيقة النظام ، وهيئة طبية من الضباط نوالها مساعدوه الألمان .

(١) المصدر عينه ص ٣ من المقدمة .
(٢) المصدر عينه ص ٤٠

(١) المصدر عينه ص ٤٤

وشجعه على الاعتداد بنفسه أن إبراهيم لم يقابل هجومه في ٢٣ إبريل بهجوم مثله . ولما سقطت عينتاب في يده زاد اطمئنانه ، ولم يساوره قلق ما حتى جيء إليه بأحد الأسرى الذين وقعوا في يد الأتراك عند استيلائهم على قرية تل باشر . وهذا الأسير هو فرجاني شيخ عرب الهنادى . وكان رجلا سواه الله فعدله ووهبه من الكبرياء بقدر ما وهبه من قوة الجسم . وأخذ القائد العام يسأل أسيره ، لعله يعرف منه مايفيده في موقفه ، لكن الرجل كان عنيداً لا يلين فأجابه بقوله : « عن أى شيء تسألنى ؟ دونك رأسى فليس ينجيه منك لسانى ، بل ربما أوقعنى فى الهلاك إن كان منطاق سبباً فى إراقة دمي » . فأجابه حافظ بقوله : « لن أمس شعرة من لحيتك إذا صدقتنى القول » . فقال له الأسير : « أقسم بالقرآن أنى سأبرح هذا المكان حياً سليماً من الأذى ، أخبرك بما تريد »

فلما أقسم ضحك فرجانى ملء شدقيه وقال :

« أتريد أن أخبرك بالحق وأطلعك على رأيي فى معسكرك ومعسكر إبراهيم ؟ أتريد أن تعرف ما سيقع فى المستقبل ؟ ألا هل يستطيع أحد أن يتنبأ بما فى عالم الغيب ؟ لكنك إذ أصررت على معرفة الحقيقة فانى مبلغك إياها : إن معسكر إبراهيم معسكر جنود ، أما معسكركم فمعسكر حجاج » .

فقال له القائد التركي غاضباً : « وما ذا تقصد بهذا القول ؟ » فرد عليه بقوله : « رأيت فى معسكر إبراهيم أكداساً من الأسلحة وإلى جوارها كتائب من الجند المشاة مدججين بالسلاح ؛ ورأيت المدافع وإلى جانبها رجال المدفعية ؛ ورأيت الاصطبلات ويقربها الفرسان ؛ ورأيت كل إنسان فى موضعه متأهباً لأداء واجبه ؛ ولم أر شيئاً من ذلك فى معسكركم ، بل رأيت فيه يهوداً وتجاراً وأئمة ؛ رأيت فيه رجالا يقرضون المال ، ورجالا يبيعون ، وآخرين يصلون ، ولذلك قلت : إن معسكركم أشبه شيء بمعسكر الحجاج . وتسألنى لمن سيكون النصر ؟ فأقول إن هذا ما لا أعرفه ، لأن علمه عند الله ، ولتعلمن نبأه بعد حين » [1]

إن للأتراك أغلاطاً ولكنهم قوم كرام . ومع أن حافظاً قد تألم وكاد يصعق مما قاله العربي الصريح ، فقد فك أسره وخلى سبيله ، وقبل أن يعود إليه صوابه جاءه رسول ومعه خطاب من إبراهيم ؛ ولم يكن هذا الرسول يحمل راية الهدنة لأن الحرب لم تكن أعلنت رسمياً بين الدولتين . وكان تاريخ الخطاب ٨ يونيه سنة ١٨٣٩ وقد جاء فيه :

« إن التعليمات التى أرسلتها الدول العظمى إلى قناصلها المقيمين فى الاسكندرية قد أقنعتنى بأنهن غير راضيات عن الحرب ؛ وإنى لأعرف أيضاً أن سمو مولاى المعظم غير راض عنها ، ولكن على الرغم من هذا .

(١) فان سليمان باشا المرعشلى أرسل فصيلة من جنوده هاجمت جيوشنا فى بولانق .

(٢) وأرسلتم فرقة إلى باياس[1] لتحريض أهلها على الانتقاض علينا

(٣) وبعثتم بالحاج عمر أوغلو إلى كرد داغ[2] للغرض نفسه .

(٤) وغزوتم أرضنا وهاجمتم عرب الهنادى التابعين لنا .

(٥) ووزعتم الأسلحة على أهل ولاية عينتاب ، ودخل سليمان باشا المرعشلى هذه المدينة ولا يزال باقياً فيها إلى الآن . وبالأمس هاجمت قوة من الفرسان تحت قيادة سعادتكم صفوفنا وأمرتم مدفعيتكم أن تصوب نيرانها على فرساننا المنادى فى مخافرنا الأمامية » .

وبعد أن ذكر إبراهيم هذه الأسباب قال :

« ولقد صبرت إلى الآن على هذا كله ولم أقابله بمثله ، لأننى كنت أحاول أن أقنع نفسى بأن هذه الأعمال العدائية تغضب السلطان مولانا المعظم . فاذا كنتم سعادتكم تعزون سكوتى عنها إلى الخوف فانكم مخطئون فى ظنكم ، إذ ليس لسكوتى الا سبب واحد هو حرصى على احترام رغبات سمو والدى وسيدى المعظم . وإذا كنتم سعادتكم قد تلقيتم الأمر باستئناف القتال ، فما بالكم تنهجون هذا النهج وتدسون الدسائس . هلموا إلى ميدان القتال ولكن هلموا إليه بصراحة ، وخوضوا غمرات الحرب كما يجب أن تخاض . وإلا إخالكم قد نسيتم ماحدث منذ بضع سنين ، وستلقون رجالاً لا يعرف الخوف طريقه إلى قلوبهم ؛ أما الدسائس فاننا لا نطيق احتمالها إلى الأبد . فهل أحظى منكم بجواب صريح ؟ فان فعلتم فسينقل ردكم إلى إذا رغبتم حامل هذا الخطاب الأمير ألاى محمود بك[3] » .

(يتبع) محمد بدران

(١) كدلفين وبرو فى كتابهما السالف الذكر جزء ١ ص ١٨٨ .

(١) ميناء صغير فى خليج الأسكندرونة (المعرب)

(٢) جبل الأكراد (المعرب)

(٣) كدلفين وبرو (ج ١ ص ١٩٣)